

الأسس النظرية والإجراءات المنهجية لأنثروبولوجيا الاتصال

د. راشد وردية

جامعة الدكتور يحي فارس بالمدينة - الجزائر



ملخص:

تندرج هذه الدراسة ضمن ميدان الأنثروبولوجيا، تعالج الأسس النظرية لأنثروبولوجيا الاتصال كفرع وتخصص علمي يحلل الاتصال الإنساني في أشكاله وتمظهراته المختلفة، من أجل ذلك، يتحدد الهدف الأساسي لهذا المقال العلمي في توضيح المقاربة الأنثروبولوجية للاتصال على ضوء ما بلورته الدراسات الإثنوغرافية والإثنولوجية المنصبة حول الظواهر والممارسات الثقافية والاجتماعية، ويسمح هذا بفهم بوادر ظهور أنثروبولوجيا الاتصال وتطورها، كما يسمح في الوقت ذاته بتحديد الأدوات التحليلية والمنهجية لهذا العلم، ولأن الجانب الميداني ركيزة هذا المجال، رأينا ضرورة اقتراح رؤية تطبيقية حول التحليل الأنثروبولوجي لظواهر الاتصال الحديث، كخلاصة أساسية لهذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الاتصال، المشاركة، الأنثروبولوجيا، الوصف الأنثوغرافي، التحليل الإثنولوجي، الاتصال الحديث.

Résumé

Titre / les bases théoriques et les démarches méthodologiques de l'anthropologie de la communication

Cette étude est incluse dans le domaine de l'anthropologie, elle traite les bases théoriques de l'anthropologie de la communication, en tant qu'une branche scientifique qui analyse la communication humaine dans ces différentes formes, l'objectif principal de cet article est d'éclairer l'approche anthropologique de la communication à partir des études ethnographiques et ethnologiques des pratiques culturelles et sociales pour mieux comprendre l'émergence et le développement scientifique de l'anthropologie de la communication, y compris les outils analytiques et méthodologiques de cette dernière.

Et comme la pratique est la base de ce domaine, il est nécessaire de proposer comme conclusion un aperçu pratique sur l'analyse des phénomènes de la nouvelle communication.

Les mots clefs sont : communication, participation, anthropologie, description ethnographiques, analyses ethnologique, nouvelle communication.

مقدمة

إننا وحينما نتحدث عن أنثروبولوجيا الاتصال، نستحضر حقيقة أكدها معظم الباحثين والمساهمين في هذا المجال المعرفي ويتعلق الأمر بكون الانسان " كائن اتصالي" ويستحيل له أن لا يتصل"، و تحليلنا لهذه الحقيقة يعود بنا إلى ضرورة منهجية تتمثل في مقارنة كل السلوكات اليومية والنظم الاجتماعية وأنماط الاتصال والتواصل البشري على أنها مواضيع لأنثروبولوجيا الاتصال، فهي نصوص أنثروبولوجية يسمح تحليلها بفهم سيورة العلاقات الاجتماعية وبنية المجتمع ككل.

فالمقاربة الأنثروبولوجية للاتصال من هذا المنظور مقارنة شمولية، تتناول الاتصال كفاعل شمولي متكامل لا يتوقف معناه عند حدود الإيصال والتبادل، بل يتعدى ذلك، ليشتمل مفاهيم أخرى تدور في الحقل الدلالي نفسه لهذا المتغير

الحيوي، ويتعلق الأمر بكل من : المشاركة، التبادل، التقاسم، التفاعل ، التحوار ، المحاكاة، وغيرها ، وهنالك يتوقف المنهج الأنثروبولوجي عند وصف وتحليل كل هذه الأشكال باعتبارها تندرج في سيرة متكاملة من الأفعال والممارسات الاتصالية والتي تتراوح في طبيعتها ما بين البسيطة والمركبة، الشيء الذي يتيح الفهم المعمق ببنية المجتمع، العلاقات الاجتماعية ومختلف أنماط التفاعل الرمزي.

والجدير بالذكر أن الحديث عن المنظور الأنثروبولوجي للاتصالي ليس وليد المفهوم الشمولي لهذا الفعل الحيوي، سواء تعلق الأمر بمنظوره النظري أو ارتبط ذلك بأسسه وإجراءاته المنهجية، بل هو في حقيقة الأمر موغل في القدم، إذ يعود إلى الإسهامات الأولى للأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، والتي حلل فيها الباحثون والمفكرون العديد من الأفعال الاجتماعية والممارسات الثقافية، وتقفوا من خلالها ملامح الفعل الاتصالي فيها، الشيء الذي ساهم في فهم البنية الاجتماعية والمجتمع ككل، وعلى الرغم من عدم الاعتراف بهذا الفرع المعرفي في تلك الحقبة الزمنية، إلا أن هذه التحليلات قد استوفت بالمنهج الأنثروبولوجي الظاهرة الاتصالية كسمة أنثروبولوجية وممارسة تدخل في إطار النظام الثقافي والاجتماعي، مثلها مثل العادات، التقاليد، نظام القرابة، اللغة، العمران، النظام الاجتماعي وغيرها....، وقد أدى ذلك إلى التعمق في فهم الظاهرة الانسانية كفعل ثقافي، اتصالي واجتماعي في الوقت ذاته.

إنها في مجملها أسس نظرية أرست بإسهاماتها، أسس أنثروبولوجيا الاتصال، والتي برزت أهميتها مع تنامي أهمية الظاهرة الاتصالية، وتطور أشكال هذه الأخيرة، ما استدعى التفكير في تحليل الاتصال كموضوع أساسي لعلم الإنسان، في ظل فرع يدرس مختلف أنماطه ووسائله وتداعياته دراسة مغايرة لما هو متداول في ظل علوم الإعلام والاتصال، إذ لا يركز على ما تبثه وسائل الإعلام، من مضامين اتصالية، ولا يتوقف عند ما تحدثه من اتجاهات خاصة بالتأثير، بل يمتد ذلك إلى تحليل الظاهرة الاتصالية كموضوع للبحث الأثر وبولوجي، يحلل فيها الباحث كل الجوانب الوثيقة الصلة بها، تحليلا معمقا يسمح بفهم كل المتغيرات المساهمة في تفعيل أدائها، الشيء الذي يستدعي على الباحث، وفي ظل أنثروبولوجيا الاتصال معايشة الفعل الاتصالي، كقاعدة أساسية لفهم مضمونه.

وستدعي هذه المعايشة إمعان الفكر والذهن لفهم الظاهرة الاتصالية، والإلمام بكل أبعادها ومتغيراتها، وذلك من خلال مشاركة الفاعلين في الحدث الاتصالي والتفاعل معهم في الممارسة الاتصالية، على نحو يمكن من خلاله فهم الحدث الاتصالي، وفهم المعنى المتولد عن هذا الفعل، والمنبثق عن كل ممارسة اتصالية، الشيء الذي يؤكد اعتماد أنثروبولوجيا الاتصال على ما يسمى : " أنثوغرافيا السلوك اليومي " مصدرا أساسيا للحصول على البنية المعلوماتية كمستوى أساسي للبحث، يمكن من خلاله الولوج إلى البنية العميقة للنسق الاتصالي من خلال الملاحظة الدقيقة والمعقدة، والتحليل الشمولي الذي يستوفي كل الأبعاد والمتغيرات.

والجدير بالذكر أن البحث في الحدث الاتصالي هو في جوهره بحث متكامل، يأخذ بعين الاعتبار خصوصية الظاهرة الاتصالية، والتي ترتبط بكل جوانب النسق الاجتماعي والثقافي، الشيء الذي يفسر تعدد المقاربات

الأنثروبولوجية وتنوعها بحسب خصوصية النسق الاتصالي، وطبيعة الفاعلين هذا الأخير، مع العلم أن للوسائل الاتصالية التواصلية ولمضمون الرسالة دورهما الفعال في فهم هذا الأخير.

من هذا المنظور، فإن البحث في مسألة أنثروبولوجيا الاتصال بحث شامل شمولية الاتصال، يستوفي عدة محاور أساسية، تتحدد أهمها في كل من : بؤادر الاهتمام بالاتصال والتواصل في الفكر الأنثروبولوجي، النشأة العلمية لأنثروبولوجيا الاتصال، المقاربات النظرية والتحليلية لأنثروبولوجيا الاتصال بالإضافة إلى الأسس المنهجية والإجراءات التطبيقية التي لا بد من التركيز عليها في فهم وتحليل النسق الاتصالي.

إنها النقاط الجوهرية التي سنحاول تحليلها والتعمق فيها من خلال هذه الورقة البحثية، والتي سنركز من خلالها على أهمية أنثروبولوجيا الاتصال وسط العلوم الإنسانية والاجتماعية، ورأينا ضرورة إبراز أهمية التوظيف المنهجي لهذه المقاربات قصد فهم الإشكاليات المعاصرة للاتصال والتواصل في المجتمعات الحديثة لا سيما في ظل الميديا الاجتماعية وما أحدثته من تغييرات جوهرية في الحياة الاجتماعية، تمس العادات، التقاليد، اللباس، الهوية، ومختلف الأنماط السلوكية، لكن، وقبل التعمق في كل هذه النقاط، سنحاول تحديد مفهوم هذا العلم، وبؤادر الاهتمام فيه، للتوصل إلى مقارباته ومنهجيته وأسس تحليله.

أولا، الأنثروبولوجيا وبؤادر الاهتمام بالفعل الاتصالي:

إن الحديث عن الأنثروبولوجيا، أو علم الإنسان، ، يعود بنا إلى التاريخ القديم، وبالتحديد إلى الحضارة الإغريقية واليونانية القديمة، نستشف ذلك من خلال استنطاق دلالة التسمية باللغة اللاتينية، " أنثروبوس **anthropos** " والتي تعني الإنسان و لوقوس **logos** الذي يشير إلى العلم، وباتحادهما تنتج الدلالة الأساسية المتمثلة في : " علم الإنسان **science de l'homme** "، بمعنى العلم الذي يدرس الإنسان من حيث جميع جوانبه: " الاجتماعية، الثقافية، العضوية، التاريخية، الاقتصادية والحضارية. (محمد عبده م، دون سنة: 25) .

إنه العلم الذي يسعى إلى دراسة الإنسان وفهمه بصفته: " كائن اجتماعيا **homme social** " يعيش في البيئة الاجتماعية ، ويتفاعل مع مختلف متغيراتها، ويرادفه في اللغة العربية : " علم الإنسان " أو : " النياسة " باعتباره الفرع العلمي الذي يتناول كموضوع أساسي له الإنسان ككائن ثقافي واجتماعي وبيولوجي في الوقت ذاته.

والجدير بالذكر أن البحث في مجال الأنثروبولوجيا يستحضر بأي شكل من الأشكال التخصصات العلمية المدعمة والمجاورة لهذا العلم، ويتعلق الأمر بكل من : " الأنثوغرافيا، الإثنولوجيا وغيرها " وهنا، تعرف الأنثوغرافيا **l'ethnographie** بكونها المرحلة الأولى للبحث الأنثروبولوجي، وتتكون من شقين أساسيين هما: " إثنوس **ethnos** التي تشير إلى الشعب و " قرافيان **graphien** التي تشير إلى الوصف، وباتحادهما تتشكل دلالة وصف الجماعات البشرية (**Lombrard J, 1998 : 11**).

من أجل ذلك، عرفها: "كلود ليفي ستروس **Claude Levi Strauss**" بكونها المرحلة الأولى للبحث الأنثروبولوجي، يعنى بجمع المعلومات والبيانات الوصفية المتعلقة بالموضوع المدروس، وتتطلب هذه العملية التنقل إلى الميدان، والملاحظة العلمية الدقيقة للظواهر الاجتماعية والثقافية، من أجل ذلك، وتعرف بكونها: "الدراسة الوصفية للموضوع الأنثروبولوجي من خلال ملاحظة مختلف متغيراتها وتمثلاته عبر أسلوب الحياة ومجموع العادات والتقاليد والقيم والأدوات والفن.... وغيرها، وتسجيل المعلومات الواصفة لمكوناتها وخصائصها خلال فترة الدراسة" (Levi- Strauss , C , 1974 : 25).

وتتحدد الإثنولوجيا **l'ethnologie** بكونها المستوى الثاني للبحث الأنثروبولوجي ، ويعرفها كلود ليفي ستروس بكونها: "تمثل الخطوة الأولى نحو التحليل، وتستلزم هذه الأخيرة الإلمام بالسلمات الأنثروبولوجية المؤطرة للظاهرة المدروسة، والتي تتعلق بمرجعية النسق، سواء تعلق الأمر بما هو: "جغرافي، تاريخي، ثقافي، اجتماعي حضاري، ديني...." وغيرها، وهنأ، يتولى من خلالها الباحث عملية تحليل الظاهرة الأنثروبولوجية من خلال الدراسة التحليلية والتفسيرية للمادة الإثنوغرافية، من خلال ربطها بمتغيرات الفضاء الأنثروبولوجي المؤطر لها، وباتحادها تتشكل الأنثروبولوجيا **l'anthropologie** ، باعتبارها الدراسة التحليلية المقارنة للممارسات والثقافات والأجناس البشرية، قصد الوصول إلى تعميمات حول الظاهرة الإنسانية، من خلال توضيح أصولها، وتحديد تنوعها، من: "تقاليد، عادات، لغات، ثقافات، مؤسسات اجتماعية وثقافية، أنطاط الحياة والتصرف، وغيرها..". فالأنثروبولوجيا من هذا المنظور تسمح بدراسة وشرح وفهم التنوع الثقافي، البيولوجي والفيزيائي في المجتمعات البشرية، وقبل أن يسلم بكونها العلم الذي يهتم بدراسة الإنسان، قدمت في شأنها العديد من المفاهيم والتعاريف، لعل أبرزها ما أشار إليه **Jean Poirier** بكونه: "دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان". (حسين ف ، 1986 : 15)

وهنا، يعتبر عالم الطبيعة الألماني **J Blumenbach** في رأي هذا المفكر أول من أدخل كلمة الأنثروبولوجيا في منهج تدريس التاريخ الطبيعي بالمقررات الجامعية، ويضيف في هذا الصدد أن الفيلسوف الألماني **I Kant** قد أشاع استخدام هذا المصطلح، لا سيما بعد صدور كتابه الموسوم ب: "الأنثروبولوجيا من منظور علمي" وكان إسهام هذا المفكر منصبا حول دراسة أدب الرحالة، وتصنيف السلالات البشرية، والخصائص الوراثية للشعوب والقبائل ، بالإضافة إلى الدراسة المقارنة بين الإناث والذكور من حيث الصفات التشريحية والعمليات البيولوجية، وعلاقة ذلك بتحديد الوظائف والأدوار الاجتماعية لكل نوع بشري (حسين ف ، 1986 : 15).

وبقي هذا العلم يحيل إلى هذه الدلالة إلى غاية القرن الثامن عشر، حيث ظهرت أهم التعاريف المقدمة لهذا الفرع المعرفي الهام والحديث نسبيا، ويتعلق الأمر بما أشار إليه كل من: "داروين، إمل دوركايم، مارسال موس، وغيرهم بيد أن التأسيس العلمي والأكاديمي لهذا العلم قد تم في الصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي هذا

الصدد، يمكن اعتبار تعريف الباحثة الأنثروبولوجية: " مارغريت ميد (1901-1979) من أهم وأشمل التعاريف المقدمة في هذا الشأن، إذ حددت مفهوم الأنثروبولوجيا من خلال إشارتها إلى خصائص وأسس البحث الأنثروبولوجي، ونستشف هذا في قولها: " نحن نصف الخصائص الإنسانية والبيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الأزمان وفي سائر الأماكن ، ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية كأساق مترابطة ومتغيرة ، ، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة، كما نهتم بوصف وتحليل النظم الاجتماعية والتكنولوجيا ، ونبحث في الوقت ذاته بالبحث عن الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته" (حسين ف ، 1986 : 15) ..

فالبحت الأنثروبولوجي من هذا المنظور بحث معمق وشعولي، يستوفي بمنهجه وتحليله الإنسان وما يحيط به من متغيرات سوسيو ثقافية، من أجل ذلك، تتنوع الفروع المعرفية المندرجة ضمن هذا التراث المعرفي وتتعدد بتعدد زوايا الإرتكاز والمعالجة - من جهة- واختلاف المرتكزات الفكرية للمدارس والتيارات الفكرية التي تتبناها - من جهة أخرى، ففي الوقت الذي تحدثت فيه المدرسة الأمريكية عن الأنثروبولوجيا الثقافية **l'anthropologie de la culture**، على اعتبارها المرادف الأساسي للإثنولوجيا في التراث الفرنسي، يتناول بالدراسة الوصفية التحليلية المعمقة للإنسان من منظور أنساقه الثقافية، وتشتمل كموضوع أساسي لها: " اللغة، الثقافة ، العادات والتقاليد وغيرها" أشارت المدرسة الإنجليزية إلى ما أسمته ب: " الأنثروبولوجيا الاجتماعية **l'anthropologie sociale** " باعتبارها التسمية المعرفية الأكثر تداولاً في التراث الإنجليزي البريطاني، ويتولى هذا الفرع المعرفي مسألة دراسة السلوك الاجتماعي الذي يتخذ نظماً اجتماعية تضم أنساق مختلفة، تدخل في تشكيله النظام الاجتماعي العام، ويتعلق الأمر بكل من: " العائلة، نسق القرابة، التنظيم السياسي والقانوني، العادات والتقاليد وغيرها" ، وتشتمل في الوقت ذاته المقارنة التحليلية التي تندرج ضمنها مجموعة من الأنثروبولوجيات، أهمها: " أنثروبولوجيا القرابة، الدين، الأنثروبولوجيا الاقتصادية، أنثروبولوجيا الاتصال وغيرها" ، ولا ننسى في هذا التصنيف ما يسمى ب: " الأنثروبولوجيا الفيزيائية، أو العضوية، التي تعنى بدراسة السمات الفيزيائية للإنسان، لا سيما ما هو وثيق الصلة بنشأته، وصفاته، وأصل جيناته . (الجوهري م ، 1983 : 47 ، 48) .

وهنا، تعتبر أنثروبولوجيا الاتصال فرعاً أساسياً من الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، يعنى بدراسة الجوانب الاتصالية والتواصلية في الإنسان، من خلال تركيزه على أنماط الاتصال والتواصل التي ينتهجها هذا الأخير، والوسائل المعتمدة في العملية الاتصالية، بالإضافة إلى أشكال التفاعل الرمزي التي تفعل في السياق التواصلية، ناهيك عن وضعية الفاعلين في هذا السياق، وعلى الرغم من أن بوادر ظهور هذا الأخير تخصص علمي قائم بحد ذاته كان في الستينيات من القرن الماضي، إلا أن هذا لم يمنع من بروز أشكال مختلفة من الاهتمام بالاتصال والأنماط الاتصالية في العديد من

الممارسات الأنثروبولوجية التي تعود بجذورها إلى جذور الفكر الأنثروبولوجي - بشكل عام - (Muriel Saville T 2003:01).

فعلى الرغم من عدم الاعتراف العلمي والأكاديمي بهذا الفرع في الحقبة الزمنية القديمة، أو بشكل أعم بالأنثروبولوجيا كعلم للإنسان في تلك الفترة، إلا أن الإتصال كفعل وسلوك يومي وإنتاج ثقافي وتفاعل اجتماعي قد ورد في أشكال الفكر الأنثروبولوجي القديم، ويتجلى ذلك من خلال تحليل مختلف أشكال الممارسة والتبادل والتحاو والتفاعل، عبر تبادل المضامين بين الفاعلين الاجتماعيين، وتعميق الفهم المشترك للسياق الاجتماعي والتماثلات الاجتماعية وفق ما يتبناه المخيال الاجتماعي للجماعة البشرية من قيم وأسس ومبادئ، وهي الإسهامات التي اندرجت ضمن اتجاهات وممارسات معرفية مختلفة، أهمها: " أدب الرحلات، التجارة، الفلسفة، الشعر، الحكاية وغيرها " .

والجدير بالذكر أن هذه الإسهامات في مجملها لم تشر إلى الإتصال بشكل مباشر، إنما استحضرت في دائرة اهتماماتها الفعل الاتصالي كممارسة وسلوك يدرج ضمن ما هو اجتماعي وثقافي، ويعود ذلك إلى اليونان القدامى وبالتحديد إلى فلسفة كل من: " هيرودوتس أفلاطون، سقراط وأرسطو وغيرهم " (هايلاند إركسون ت ، فين ستيفرت ن ، تر : لاهاي ع ح ، 2013: 11).

فالمعروف عن: " هروودوتس الهاليكارناسيس (484 - 425 ق م) أنه كان مولودا في مستعمرة يونانية في الساحل الجنوبي الغربي المعروف بتركيا، وكان مولعا بالسفر، ما جعله يدون الكثير عن مغامراته في هذا الشأن، ولعل أهم ما وصفه في أدب رحلاته إلى آسيا ومصر الاختلاف الواضح بين الأعراق البشرية، وعلاقته بالمحيط الجغرافي، الاجتماعي والثقافي، ونجد هذا في وصفه المعمق لكل من: " اللباس، المؤسسات السياسية، الحرف، الاقتصاد ، التشريع"، ما جعله يبحث عن إجابات لسؤال محدد يتمثل في: " كيف لنا يمكن أن نتصل بالآخر؟ هل الآخر مثلنا أم هو مختلف عنا؟ والإجابة عن هذا السؤال جعله يتعمق في طبيعة السمات المشتركة بين الشعوب، وما تختلف به عن المجتمع اليوناني ويعتبر هذا الإسهام الأول من نوعه من حيث اعترافه بالتنوع الثقافي، وأنماط الإتصال بين الشعوب بالإضافة إلى ما يسمى ب: " جدلية النسبية والشمولية في الثقافة" (هايلاند إركسون ت ، فين ستيفرت ن ، تر : لاهاي ع ح ، 2013: 12)..

إنها الفكرة التي اشترك فيها مع العديد من الفلاسفة الذين عاصروا هذه الحقبة الزمنية، ويتعلق الأمر بكل من: " سقراط، أفلاطون وأرسطو" حيث شجعت الرحلات الجغرافية هذه النزعة الفكرية من خلال اهتمام الفلاسفة والمفكرين بجوهر الاختلاف بين الشعوب، بمعنى ثقافتها، وتحليل ما يميزها عن غيرها من سلوكيات وعناصر ثقافية، على اعتبارها الحامل الأساسي للدلالة والمعنى المشترك بين أفراد الجماعة البشرية، ولعل أهم روايب الفكر الأنثروبولوجي في

هذه الفترة ظهور تسمية: " باربار **barbare** " التي تشير إلى الآخر، بمعنى الغريب عن الثقافة اليونانية لغة وسلوكا وعادات ولباسا وتقاليدا.... (هايلاند إركسون ت ، فين ستيفرت ن ، تر : لاهاي ع ح ، 2013: 12).

ولا تختلف هذه المنطلقات الفكرية مع ما أشار إليه: " أفلاطون (447 - 327 ق م) في حواراته الفكرية، والتي ميز فيها بين أفراد المجتمع، تبعا لثقافتهم، واتجاهات تفكيرهم وحوارهم، وركز على النسبية الثقافية كأساس للتنوع الاجتماعي، والذي تعتبر فيه اللغة معيارا أساسيا لتصنيف الشعوب وتمييزها، ويعتبر هذا الإسهام جانبا من جوانب الإهتمام بالاتصال والتواصل على اعتبار أن اللغة رسالة ومضمون ووسيط اتصالي في الوقت ذاته.

وكذلك الشأن بالنسبة لأرسطو (384 - 322 ق م) والذي كانت له تأملات رفيعة المستوى حول الطبيعة الانسانية، بما في ذلك الاتصال والتواصل، وناقش من خلال مساهماته الفكرية الفروقات الفردية بين الأفراد، وبين الإنسان والحيوان، وتوصل إلى حقيقة لا مناص منها، ويتعلق الأمر بأنه، وعلى الرغم من أن الإنسان يشترك في العديد من الحاجات البيولوجية مع الحيوان، إلا أنه مميز باعتباره الوحيد الذي يمتلك العقل والحكمة والثقافة والأخلاق، وفي ثنايا هذا الفكر يمكن أن نستقرئ ضمنا الإهتمام بالاتصال والتواصل البشري.

وهنا، لا بد من الإشارة إلى أن الفكر الأنثروبولوجي قد ازدهر في المدينة اليونانية القديمة، حيث تم تشجيع النشاطات المدنية مثل الفلسفة، العلم، الفن وهو العامل الذي أدى إلى ازدهار ما يسمى ب: " أدب الرحلات " كوحدة من المؤلفات الأنثروبولوجية التي تصف بدقة وبشكل معاش ثقافة الشعوب وحضارتها، وفي ثنايا هذا الأدب، يمكن أن نستشف جوانبا للاهتمام بالاتصال والتواصل البشري، ونجد ذلك في كتابات العديد من الباحثين والمفكرين، أمثالهم أمثال الجغرافي: " ستراسبو 64 - 63 ق م) ، كتاب: " ماركو بولو (1254 - 1323 ق م) من دون أن ننسى إسهامات ابن خلدون (1332 - 1406) حول العصبية والقراءة، من خلال دراساته للعرب والبربر، والذي يعتبر حجر الزاوية في الفكر الأنثروبولوجي، من خلال دراسته التضامن العضوي بين أفراد المجتمع، ودور كل من اللغة، الدين، القراءة في تعزيز هذا الأخير، وفي هذا زاوية أخرى من زوايا الإهتمام بالاتصال والتواصل كشكل من أشكال الممارسة والتفاعل والتبادل، لا سيما وأن هذه الكتابات انبثقت من المعاشة والتفاعل مع المجتمعات المدروسة (هايلاند إركسون ت ، فين ستيفرت ن ، تر : لاهاي ع ح ، 2013: 15)..

وهنا، لا بد من الإشارة إلى أن الإهتمام بالاتصال والتواصل البشري في ظل الأنثروبولوجيا كان متضمنا في إسهامات المفكرين والباحثين في هذا المجال العلمي، وغير مصرح به كموضوع أساسي لهذا العلم رغم أهميته في التأطير النظري لهذا العلم، يمكن في هذا الصدد استحضار إسهامات: " لويس هنري مورقان 1818 - 1881) والذي نشر كتب ومقالات كثيرة حول قبائل الأروكواز، وتشتمل ثقافتهم وحياتهم ونمط عيشهم، ونجد ذلك في كتابه الموسم ب: " عصبية الأركواز 1851 م " والذي وصف من خلاله نظام القراءة المؤطر لهذا المجتمع والمحدد للنظام الاجتماعي والسياسي فيها، والمؤثر في الوقت ذاته على اللغة كوسيلة ورسالة ومضمون اتصالي، ونسق ثقافي في الوقت ذاته، وتندرج

هذه الأخيرة ضمن السمات الأنثروبولوجية الهامة التي عمل من خلالها على تحديد مراحل تطور المجتمعات البشرية، وهو ما حدده في كتابه الموسوم بـ: "المجتمع القديم 1877 م"، حيث تكشف كل مرحلة من المراحل وسائلا و أنماطا اتصالية تتراوح بين البسيطة والمعقدة (حسين ف ، 1986 : 24).

إلى جانب هذا الإسهام، يمكن استحضار الاتصال كموضوع انثر وبولوجي في إسهامات واجتهادات باحثين آخرين، ساهموا هم بدورهم في إرساء معالم الأنثروبولوجيا، وفي هذا الصدد، نستحضر ما قدمه: "تايلور Edward B Tylor (1832 - 1917)"، حيث كان اهتمامه منصبا حول الثقافة والعناصر الثقافية، إذ أشار إلى أن بقاء هذه الأخيرة مرهونا باستمرارية تداول سماتها، ومن ذلك اللغة والقراءة، على اعتبارهما الحامل والدعامة للمعنى والدلالة الثقافية بشكل عام، ويؤكد من هذا المنظور، ولمرة أخرى حقيقة كون كل من اللغة والثقافة والعادات والتقاليد مضامين ووسائل اتصالية تواصلية رمزية من شأنها أن تكشف حقيقة الجماعة البشرية، وهي في الوقت ذاته مواضع هامة للبحث الأنثروبولوجي (حسين ف ، 1986 : 25).

الجدير بالذكر أن الاتصال والتواصل قد شكل هو الآخر موضوعا ومحورا أساسيا للبحث والتحليل، وهو ما نجده متداولاً وبشكل صريح في أفكار رواد الأنثروبولوجيا الألمانية، ولعل أهمهم: "فريدريك راتزل (1844- 1904)"، ونجد ذلك من خلال تأكيده على أهمية الاتصالات والعلاقات بين الشعوب ودورها في نمو الثقافة وانتشارها، وركز في الوقت ذاته على أهمية هذه العناصر في انتشار السمات الثقافية، ويكون بهذه الأفكار قد دعم حقيقة كون الاتصال محورا أساسيا من محاور البحث الأنثروبولوجي.

وغير بعيد عن الفكر الألماني، يمكن أن نستشف معالم الاهتمام بالاتصال والتواصل والتفاعل كمواضيع للبحث الأنثروبولوجي في الفكر الفرنسي، والذي يتركز على اجتهادات العديد من الباحثين والمفكرين، ويتعلق الأمر بكل من: إميل دوركايم، أقست كونت، مارسال موس وغيرهم، ويمكن توضيح ذلك من خلال ما يلي:

- إميل دوركايم **Emile Durkheim (1858 - 1917)**: يعتبر من أهم مؤسسي علم الاجتماع الفرنسي من جهة، والأنثروبولوجيا من جهة أخرى، لعل أهم ما أسهم به في هذا المجال تركيزه على الطابع الوظيفي للأنساق الاجتماعية والثقافية، وأهمية كل من الثقافة واللغة والدين في الاستقرار الوظيفي لهذه الأنساق، كما أنه قد ركز على تحليل التضامن العضوي بين أفراد الجماعات البشرية، ودرس هذا الأخير كنمط من أنماط التفاعل، وفي نفس الوقت كسيرورة اتصالية تدعمها تقاسم أفراد الجماعة البشرية للمعنى المشترك الذي تدعمه التمثلات الاجتماعية والدينية، الشيء الذي يؤكد تصنيفه لهذه العناصر الأخيرة ضمن أهم المضامين الاتصالية والثقافية التي تعزز العلاقات الاجتماعية، لا سيما وأنه قد أكد على حقيقة كون هذا الأخير يؤسس ويقوي التعلق الوجداني للأفراد بفعل التمثلات الاجتماعية، وهو التعلق الذي ترجمه بشكل رئيسي في الطقوس الشعبية، والتي تعبر عن التواصل الروحي من خلال التفاعل البدني، ومن خلالها يصبح التفاعل مجريا ومباشرا وبدنيا، مثلما أكد على وظيفة الطقوس الدينية، والتي اعتبرها

أنماط اتصالية تواصلية، إذ أشار من خلال دراساته لها أنها نمط من أنماط الاتصال والتواصل الروحي والاجتماعي في الوقت ذاته، تحافظ على الرابطة الاجتماعية، وترسم دائرة سحرية حمائية ووقائية محرمة ، تسمى المجال المقدس، والذي يرادف سياق التفاعل والتواصل الروحي لأفراد الجماعة البشرية (Lombrard J, 1998 : 102)..

- **مارسال موس Marcel Mauss** : يصنف هو الآخر ضمن رواد المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وتعتبر أعماله امتدادا لإسهامات : " إميل دوركايم" من خلال اعتبارها المجتمع كلا مركبا بشكل عضوي، أو بمفهوم آخر، جهاز عضوي اجتماعي، أشار هذا المفكر ضمنا إلى أهمية الاتصال والتواصل كأداة للتحليل الأنثروبولوجي، ونجد ذلك من خلال تأكيده على أهمية البحث الأنثوغرافي في الدراسات الأنثروبولوجية، حيث أكد على ضرورة تعمل الباحث أسس الاتصال والتواصل مع أفراد الجماعة البشرية، ليتمكن من التوغل في خصوصيتها ومن ثم الإطلاع على التمثلات الاجتماعية والثقافية لها، وبالتالي الحصول على السر القدسي لمختلف أنماط سلوكياتها وتفاعلاتها وأدائها اليومية، ونجد في هذا الصدد قد أكد على ضرورة تعلم الباحث أسس المعيشة والملاحظة والمشاركة، والتي يعتبر الاتصال مفتاحا أساسيا من مفاتيحها، حيث قال: " على الباحث الأنثروبولوجي أن يتعلم كيف يصبح أنثوغرافيا قبل التنظير"، ويقتضي منه هذا تعلم أبعاد الاتصال والتفاعل المتداولة بين أفراد الجماعة البشرية موضوع الدراسة، أو ما يكن تسميته بال: " المفاتيح الاتصالية اللفظية وغير اللفظية **les clefs de la communication verbale et non verbale** " (Lombard J, 1998 : 102)...

من زاوية أخرى، حلل الباحث نموذجا من نماذج الممارسات الاتصالية التي تعزز العلاقات الاجتماعية، ويتعلق الأمر ب: " الهدية أو الهبة " **le don** ، وركز على الوظيفة الاتصالية التفاعلية لهذه الأخيرة، وعلاقتها بالنظام الاجتماعي ككل، حيث ذكر في أبحاثه أن: " تبادل الهدايا وسيلة للاتصال والتفاعل وتأسيس العلاقات الاجتماعية". من أجل ذلك، تعمق في التبادل في المجتمعات التقليدية الحديثة، ووجد أن أشكال الهدايا تختلف باختلاف هذه الأخيرة، ونجدها تتراوح في طبيعتها ما بين البسيطة والمعقدة، المادية وغير المادية، ويكشف كل نوع منها عن طبيعة العلاقات، فهي - كما أشار - : " التجسيد الرمزي لمدى كامل من العلاقات " **(Mauss Marcel)** (09 : 2002)..

- **كلود ليفي ستروس Claude Levi Strauss** : يعتبر هذا المفكر من أهم المساهمين في الأنثروبولوجيا، لا سيما البنيوية منها، ويمكن استحضار ذلك من خلال توسيعه أفق البحث الميداني الذي طبقه على العديد من الشعوب والقبائل في البرازيل، إفريقيا، أمريكا اللاتينية، وغيرها. أكد في العديد من مؤلفاته على البنيوية في التنظيم الاجتماعي، حيث اعتبر المجتمع كلا مركبا من الأنساق المتكاملة فيما بينها، وتلعب اللغة فيها دور الوسيط الاتصالي بين هذه الأنساق من خلال ضمان تداولية المعاني والرموز وتبادلها

بين الأفراد والجماعات، لم يستحضر ذلك من العدم، بل استساغه من أنثروبولوجيا: " فرانس بوا " ولسانيات : " رومان جاكوبسون" الشيء الذي جعل كلا من : " اللغة، المعنى، الرمز " ركائز أساسية في أبحاثه الأنثروبولوجية وتعتبر في الوقت ذاته دعائم الاتصال والتواصل بين أفراد الجماعة البشرية، حيث تعتبر اللغة حاملة المعنى ، وينتقل هذا الأخير عبر تداولية الرموز بين أفراد الجماعة البشرية" (Levi- Strauss , C , 1974 : 38).

تحدث الباحث في الوقت ذاته، وبكثير من الشرح التحليل عن أهمية اللغة والرموز في تصنيف الأعراق والجماعات البشرية، وتحديد خصوصيتها ، كما اعتبر الزواج نموذجاً من نماذج الاتصال والتواصل الاجتماعي، إذ يعمل على تعزيز العلاقات الاجتماعية، من خلال ضمان تداولية المعنى عبر مختلف الممارسات الثقافية والإبداعات الشعبية، ومن بينها نجد: العادات، الطقوس ، الأساطير ، الخرافات، الطوطم، السحر وغيرها" ، وفق هذا المنظور، أكد الباحث على أهمية الثقافة في فهم المجتمع - من جهة- وتعزيز التواصل الاجتماعي - من جهة أخرى-، حيث اعتبرها الديوان الحاوي للمعنى الاجتماعي، ونجد ذلك من خلال قوله: " المهم في الثقافة هو النظام الرمزي الذي يتكون من اللغة القرابة الأساطير، الفنون، الطقوس والتي تساهم في تفعيل وتشكيل الاتصال بين الأفراد على ضوء مستويات عدة " (Lombrard J, 1998 : 12)...

وهنا، اعتبر اللغة سمة أنثروبولوجية، ونظاماً رمزياً يتكون من مجموعة من الرموز التي تتحقق دلالتها ومعناها من خلال أشكال التبادل اللغوي (الاتصال) .

- روث بندكت **Ruth Benedict**: تعتبر من المسهمين في أنثروبولوجيا الاتصال، ونجد ذلك من خلال تركيزها على الثقافة والأنماط الثقافية ودورها في بناء الشخصية، وهنا، ركزت الباحثة على حقيقة أن هذه الأخيرة مصقلة بفعل الثقافة، التي هي في الواقع ذلك الكل المركب المشتمل للمعتقدات، التقاليد، القيم بالإضافة إلى اللغة وأنماط الاتصال والتواصل بين أفراد الجماعة البشرية، والتعمق في دراسة وتحليل الثقافة يساعد على فهم المعنى المشترك للجماعة البشرية ، وأكدت في الوقت ذاته على حقيقة كون هذه الأخيرة واحدة من الأنماط الاتصالية التواصلية التي لا بد من دراستها وتحليلها، لفهم البنية الاجتماعية وخصوصيتها(هابلاند إركسون ت ، فين ستيفرت ن ، تر : لاهاي ع ح ، 2013: 96)..

- مارقايت ميد **Margaret Mead** : لعل أهم وأبرز ما ركزت عليه هذه الباحثة أهمية التفاعل النفسي والاجتماعي في تكوين الثقافة والشخصية، وفي هذا الصدد، اشارت إلى الاتصال والتواصل والتفاعل كمحاور أساسية محددة لهذا التفاعل، وموجهة لسيرورته، وعبره يتم تكوين الأنساق الثقافية والاجتماعية والتي تكون حامل ودعامة أساسية للمعنى الثقافي المشترك من جهة، ومن شأن هذه العناصر أن تحدد مجتمعة هوية الفرد والتي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من هويته الثقافية والاجتماعية، وأشارت في الوقت ذاته إلى ضرورة فهم هذه الأنماط والأنساق من خلال المعاشية التي تسمح بالولوج إلى أهم التفاصيل المتعلقة بالظاهرة المدروسة.

- جورج هاربرت ميد : لعل أبرز ما تحدث عنه هذا المفكر اعتبار الاتصال نسقا متكاملًا مثله مثل الأنساق الاجتماعية والثقافية، واعتبر هذا النسق الوسيط الفعال بين مختلف الأنساق الأخرى، ووجوده ضروري لتدعيم التفاعل والعلاقات الاجتماعية، فالإتصال حسبه لا يقتصر في مفهومه على تبادل الأفكار بل يشتمل في الوقت ذاته التفاعل الرمزي الذي يتم عبر منظومة العلامات والرموز، وأيد من هذا المنظور أفكار: "شارل كولي" المتعلقة بأهمية هذه الوظيفة الحيوية، على اعتبارها جوهر الإنسان وروحه، وجزء لا يتجزأ من إنسانيته (بوجمعة ر، أبريل 2009: 40).

الجدير بالذكر أن البحث عن بؤادر الاهتمام بالاتصال في الفكر الأنثروبولوجي لا يقتصر على مفكر دون آخر، حيث الإتصال متضمنا كموضوع وكمنهج لدى العديد من الباحثين والرواد، لا سيما وأن هذا الأخير يعتبر المحرك الأساسي للعلاقات الاجتماعية، إلا أن التصريح بأهمية دراسة الإتصال كموضوع أنثروبولوجي كان مع الستينيات من القرن العشرين، ليكون ميلاد هذا التخصص العلمي القائم بحد ذاته في الثمانينيات.

ثانيا، ميلاد أنثروبولوجيا الإتصال:

سبق وأن أشرنا إلى أن ميلاد أنثروبولوجيا الإتصال كتخصص علمي قائم بحد ذاته يرجع إلى النصف الثاني من القرن العشرين، ويرجع الفضل في هذا إلى مجموعة من الرواد الذين تولوا عملية دراسة وتحليل الظاهرة الاتصالية كموضوع أنثروبولوجي، يشكل قاعدة الحياة والعلاقات الاجتماعية، ونستشف هذا في كتابات العديد منهم ، أمثال ' Edward T Hall·Yves Winkin ·Erving Goffman·Paul Watzlawick ·Hymes Dell' ، ' Birdwhistell ، وغيرهم والقائمة طويلة (بوجمعة ر، أبريل 2009: 39)..

وقبل الحديث عن إسهامات كل واحد منهم في هذا الحقل المعرفي الهام، لا سيما في ظل التحولات الاجتماعية والثقافية الراهنة، لا بد من الوقوف عند موضوع هذا العلم، على اعتباره يركز في الأساس على وصف الظاهرة الاتصالية والتواصلية بمختلف أشكالها وتجلياتها، ويشتمل ذلك تحليل الثقافة واللغة ومختلف الأنساق الاجتماعية والثقافية التي تتعزز من خلالها العلاقات الاجتماعية، وتهتم في الوقت ذاته بتحليل الشفرات والرموز والعلامات التي تشكل الأنساق التواصلية اللفظية منها وغير اللفظية، والتي تتأتى من خلالها مختلف أنماط التفاعلات الرمزية، بين الأفراد والجماعات في إطار الفضاء الاجتماعي العام.

وهنا، فإن أنثروبولوجيا الإتصال تركز في الأساس على أنثوغرافيا الإتصال والتفاعل اليومي، الفردي والاجتماعي ويتحقق ذلك من خلال معايشة الحدث الاتصالي كشكل من أشكال الفعل المألوف، بمعنى، كسيرورة وحدث معايش وهنا، تشكل أنثروبولوجيا اللغة واللسانيات الأنثروبولوجية لإمس دال الإنطلاقة الفعلية لهذا الحقل المعرفي، وكان ذلك منذ 1960 ، ونجد هذا تركيزه على استعمال اللغة والكلام في مختلف الوضعيات والتفاعلات في النظام الاجتماعي والثقافي، وسرعان ما تحول هذا التخصص إلى علم مستقل ، يهتم بدراسة الإتصال بمختلف أنماطه واتجاهاته وأشكاله، إذ ركز هذا المفكر على حقيقة لا مناص منها، وهي أن: " كل السلوكات والوضعيات والأشياء الموجودة عند

جماعة معينة تتضمن قيمة اتصالية " (16 , 15 : Yves W,1996)، ولا بد من دراستها لفهم التمثلات الاجتماعية والثقافية لأفراد الجماعة البشرية، على اعتبارها الرأسمال الرمزي لها.

لقد استثمر هذه الفكرة في العديد من كتاباته، لعل أهمها: "أثنوغرافيا الكلام" **The ethnography of speaking** والذي صدر عام 1962 وقد اهتم فيه بسيرورة الاتصال والسلوكيات الاتصالية والتفاعل بين أفراد الجماعة البشرية، وقد اهتم في الوقت ذاته بدراسة الكلام، أو بالأحرى فعل الكلام كنسق مكون للأنساق الثقافية، وكجزء لا يتجزأ منها، لتحديد وظيفتها الأساسية في حفظ رمزية الثقافة وضمان استمرارية معانيها ودلالاتها (**Manas R** , 2011 : 33).

من جهة أخرى ، نجد أن هذا المفكر قد ركز على الكلام كفعل اتصالي يتم ما بين الفاعلين في العملية الاتصالية، وذلك وفق سيرورة خاصة بالتفاعل الرمزي والتحاور والتبادل، اللفظي وغير لفظي، لذلك، فإن الدراسة الأثنوغرافية للأنماط الاتصالية داخل الجماعة البشرية لا بد من أن تنب في الأساس على مختلف هذه الأنماط التبادلية، والتي يركز من خلالها الباحث على العناصر التأسيسية لسيرورة الاتصال، على اعتبارها تشكل متكاملة المعنى الاجتماعي ، وقد بلور هذا في نموذج الخاص الذي وسمه ب **speaking** أي المحادثة، والذي لا يختلف كثيرا عناصر مخطط الاتصال ل : " رومان جاكوبسون" بيد أنه قد ركز في هذا النموذج على ضرورة معايشة الفعل الاتصالي من خلال تحليل إنتاجيته وتحولاته ما بين العناصر المكونة لنموذجه الاتصالي، وقد حددها فيما يلي (**Manas R** , 2011 : 35) .:

- **السياق** : ويرادف المرجع في عملية الاتصال، يشتمل الفضاء الذي يتم فيه التبادل والتحاور والمشاركة والتفاسم بين الفاعلين في العملية الاتصالية، ولا يقتصر في مفهومه على المعنى المادي الملموس، والذي يوازي البعد الزمكاني، بل يتعدى ذلك ليشتمل كل المتغيرات المحيطة بالفعل الاتصالي، بما في ذلك المعنى الرمزي المرتبط بالمتغيرات السوسيوثقافية، أو ما أسماه : " يوري لوتمان" ب: "الفضاء السيميائي" أو **la sémiotique** على اعتباره الفضاء المغذي لدلالة الرسالة الاتصالية والمشعب لرمزيتها والمحدد لخصوصيتها الثقافية .

- **المشاركون** : ويقصد به الفواعل في العملية الاتصالية، أو السيرورة الاتصالية بشكل عام، ويشتمل هذا المحور على الفواعل الأساسية والفواعل الثانوية بالإضافة إلى الفواعل المحايدين أو السلبيين، مع العلم أن هؤلاء يتوزعون في الفضاء الاتصالي بحسب درجتهم ومكانتهم الاتصالية، والأدوار الموكلة إليهم في السيرورة الاتصالية بشكل عام، مع العلم أن هذه الأدوار تتحول وتتغير بحسب الموضوع الاتصالي، والرسالة الاتصالية المراد إيصالها، بالإضافة إلى اتجاه التحاور والتفاعل الرمزي لهذه الأخيرة، دون استثناء السمات الأثنوبولوجية التي تتحكم في توزيع الفواعل، منها: " القرابة، الوظائف والأدوار الاجتماعية.... وغيرها".

- **الغايات** : ويراد بها الهدف من العملية الاتصالية، أي النتيجة العامة المراد الوصول إليها، والمتفق عليها من قبل الفواعل في هذه العملية، وترادف قصدية التبليغ في العملية الاتصالية.

- **الأفعال أو المنتوج:** ويشمل سلسلة الأفعال والرسائل الاتصالية والتي يتم إنتاجها خلال سيرورة الاتصال في السياق المحدد، ومن قبل الفواعل في العملية الاتصالية، وقصد تحقيق الأهداف المراد بلوغها في عملية الاتصال.
 - **النبرة:** وتشمل أسلوب الاتصال وطريقة الأداء، ويساعد تحليلها في تحديد قيمة المضمون الاتصالي من جهة، وتحديد وضعية الفواعل في السياق الاتصالي من جهة أخرى.
 - **الوسائل والأدوات:** وتشمل الأدوات التي تتولى عملية نقل المضمون الاتصالي وإيصاله، مع العلم أن هذه الأخيرة تتعدد وتنوع سواء داخل وضعية الاتصال، أو من وضعية إلى أخرى فنجد على سبيل المثال: " **القوات المنطوقة، المكتوبة، السمعية، البصرية، الافتراضية وغيرها**".
 - **المعايير:** تتحدد في القواعد العامة المتحكمة في السيرورة الاتصالية، وتشتمل في الوقت ذاته القيم والمعايير الاجتماعية التي تحدد الوعاء الاجتماعي المتحكم في الأداء الاتصالي من جهة، وفي المعنى المشفر للعملية الاتصالية من جهة أخرى، لذلك، تختلف هذه الأخيرة باختلاف السمات الأثنوبولوجية للمجتمع المدروس، أو بمعنى آخر، سياق الاتصال ومرجعياته السوسيو ثقافية.
 - **الأنواع:** يراد بها أنماط الخطابات الناتجة عن السيرورة الاتصالية، أي منتج كل عملية اتصالية، تختلف هذه الأخيرة وتعدد بحسب الوسيلة المعتمدة، والغايات المراد الوصول إليها، وطبيعة اللغة الاتصالية الحاملة للمعنى والمضامين، ونجد في هذا الصدد: " **الكلام المألوف، القصص، الحكايات، الطقوس، الرقص، الغناء العمران، وغيرها**".
- الجدير بالذكر أن المفكر قد ركز على الفاعلية في الأداء الاتصالي، والتي لا يمكن أن تتحقق دون تمتع الفاعلين في عملية الاتصال بما أسماه: " **الكفاءة الاتصالية**" وهي خاصية مكتسبة بفعل التنشئة الاجتماعية تمكن الفرد من اقتحام الفضاء الاتصالي بشكل شرعي واحتلال مكانة مرموقة فيه، تمكنه من إدارة الحوار والتفاعل والتحكم فيه، على نحو يتحول فيه إلى فاعل أساسي في عملية الاتصال، وهنا، لا بد من الإشارة إلى أن الكفاءة الاتصالية تشتمل التحكم في اللغة وأساليب التعبير بالإضافة إلى تفعيل الأساليب الحجاجية والبلاغية في الرسالة الاتصالية بالاستناد إلى الوعاء الاجتماعي الذي يمثل مرجعية المتلقي ورأسماله الرمزي، بالإضافة إلى فعالية أداء الحوار وتوجيهه، من خلال سمات شخصية قوية تجعل المرسل مخاطبا فعالا، يعمل برسائله ومضامينه الاتصالية على بلوغ فعالية التأثير وقوة الإقناع) **بوجمعة ر، أبريل 2009: 45 بتصرف**...
- يعتبر هذا النموذج أكثر النماذج تداولاً في أنثروبولوجيا الاتصال نظراً لإمكانية تطبيقه على مختلف أنماط الخطابات الاتصالية بوضعياتها المختلفة، بيد أن أنثروبولوجيا الاتصال تتبنى نظرة شمولية للفعل والأداء الاتصالي لدرجة تحليل كل ظاهرة أو فعل أو نسق أو أداء على أنه شكل من أشكال الاتصال والتواصل، يستحضر معناه من خلال إرجاعه إلى المخيال الاجتماعي للجماعة البشرية التي تتبناه، وهي الحقيقة التي أكدها أحد رواد هذا الاتجاه، والذي ركز على أن: " **كل شيء عبارة اتصال باعتباره يتضمن معنى مشتركاً من قل أفراد الجماعة البشرية**".

وقد أكد هذه الحقيقة "إفس ونكن" **Yves Winkin** " في العديد من المؤلفات، إذ أشار إلى أن الاتصال حتمية من الحتميات، حيث أن الإنسان كائن متصل، ويستحيل له أن لا يتصل، سواء كان ذلك بشكل قصدي أو غير قصدي، فكل سلوكياته وأفعاله عبارة عن رسائل ومضامين اتصالية، ويتحدد مغزاها الأساسي في تعزيز العلاقات الاجتماعية بين أفراد الجماعة البشرية (41: Yves W, 1981).

وهنا، لا بد من الإشارة إلى أن هذا المفكر قد تبني المفهوم الشمولي للاتصال والذي لا يقتصر على التبادل من خلال الإيصال والإستقبال للمضامين والرسائل الاتصالية، بل نجد أن معناه أشمل وأوسع يستقطب إلى حقله الدلالي التواصل بمفهوم عام، أي الإستمرارية في الأداء ويكون هذا عبر كل من المشاركة والتقسام والتفاعل والتحاور، وهي العمليات التي لا تتم عبر ما هو لفظي، بل تتجاوز اللفظ إلى الإيماء، وإلى استقطاب المعنى المتولد عن التفعيل الدلالي للغة الأشياء، وهو ما أسماه بالاتصال الاجتماعي **social communication**.

من زاوية أخرى، نجد أن أنثروبولوجيا الاتصال قد تدعمت بأفكار ودراسات كل من **Birdwhistell** و **Edward T Hall** " حول الاتصال الشامل، إذ دعمت أبحاثها حقيقة كون الاتصال تجربة أنثروبولوجية معيشة وثيقة الصلة بالأحداث والتفاصيل اليومية، وتحليل هذا الأخير يفرض على الفرد معيشة تفاصيل هذه التجربة بكل حيثياتها، وقد أكد حقيقة كون الانسان كائن رمزي يعيش في منظومة الرموز والعلامات ويتفاعل بها ويتواصل عبرها، وتساهم بذلك على تفعيل تفاعله النفسي والاجتماعي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، نجد أن هذا المفكر قد أكد على أهمية التواصل غير اللفظي في ظل التفاعل الاجتماعي، إذ أشار إلى أن ما يقارب ستين بالمائة 60 % من اتصالاتنا اليومية تتم عبر اللغة الجسدي، أي ما أسماه الكينيزية **Kinesics**، وتشمل اللغة غير اللفظية المرافقة أو المدعمة أو المناوبة عن اللغة اللفظية، وتدعم الرسالة الاتصالية وتؤكد لها. (زكي كريم ح د، دون سنة، 32)

أشار في الوقت ذاته ارتباط هذه اللغة بالسياق الثقافي والاجتماعي لأفراد الجماعة البشرية التي تتواصل بها، حيث تتعارف وتتفق على معانيها ودلالاتها، وتعتبر الوحيدة التي تمتلك مفاتيحها التأويلية، لذلك، فإن تحليل هذا النمط من الاتصال في علاقته مع الإتصال الاجتماعي بشكل عام، أو كشكل من أشكال هذا الإتصال يستدعي الإطلاع على الفضاء السيميائي المولد لمعانيها والمؤطر لرمزيتها.

غير بعيد عن الاتصال غير اللفظي، وعن أنثروبولوجيا الاتصال بشكل عام، نجد إدوارد هال **Edward T Hall** باحثا آخر قد ركز على أهمية الاتصال غير اللفظي كنموذج وتجربة أنثروبولوجية، واستحضر جوانبه المختلفة في كتابه الموسوم ب: " البنية الغائب **la dimension caché** " مركزا خلال هذه الجوانب حقيقة ارتباطه في مدلولاته بالتجربة الإدراكية المشتركة لأفراد الجماعة البشرية، وقد جعله هذا يتعمق في الأنماط المختلفة للاتصال والتي ترتبط في جوهرها بالحواس الخمس، وهي النماذج المؤطرة اجتماعيا وثقافيا، حيث ترتبط في دلالتها بالخصوصية الثقافية لأفراد الجماعة البشرية التي تتداولها، وتشتمل هذه الدلالات في الوقت ذاته الصمت كشكل من أشكال الاتصال، والتي لا

ينفصل في جوهره ومضمونه عن التداول الاجتماعي (: Edward T H, traduit par Petita A, 1971).
130).

والجدير بالذكر أن هذا المفكر قد أكد على أهمية دراسة الفضاء في الاتصال على اعتباره رسالة ومضمون اتصالي في الوقت ذاته، وتحدد الأبعاد الدلالية له بحسب طبيعته، وطبيعة المسافة التي تفصل الفاعلين فيه، وهي التي تحدد بحسب الأدوار الاجتماعية، وتحدد في الوقت ذاته طبيعة هذه الأدوار، الشيء الذي يجعل من الاتصال غير اللفظي بنية أنثروبولوجية محددة لحقيقة الجماعة البشرية وخصوصيتها الاجتماعية والثقافية.

المتأمل لأفكار هؤلاء الباحثين وإسهاماتهم في أنثروبولوجيا الاتصال يتوقف عند حقيقة كون هذا الأخير في أشكاله البسيطة المألوفة أو نماذجه المعقدة جوهر العلاقات الاجتماعية، حيث تساعد عملية تحليله على فهم الواقع الاجتماعي ومن ثم الاحتكاك بالمعنى المشترك لأفراد الجماعة البشرية التي تتداول رموزه وعلاماته وشفراته، وتقوم ببناء علاماته عبر آلية التشفير وفك التشفير، لذلك، لا بد من تحليله كموضوع أنثروبولوجي من خلال منهج كفي يركز في الأساس على معايشة التجربة الاتصالية في عمقها وبكل تفاصيلها.

ثالثاً، الإجراءات المنهجية والتطبيقية لأنثروبولوجيا الاتصال.

تقتضي الدراسة الأنثروبولوجية للاتصال معايشة الظاهرة الاتصالية في مرحلتها الإنتاجية، من خلال آليات منهجية خاصة بالبحث الأنثروبولوجي، تركز في الأساس على ما أشار إليه: "مارسال موس" بمعايشة الظاهرة الأنثروبولوجية كشرط أساسي لفهم الظاهرة المدروسة، إذ أشار إلى ضرورة تقيد الباحث بالدقة في البحث الأنثوغرافي ليتمكن فيما بعد من تحقيق العمق في التحليل الأنثروبولوجي، ويكون ذلك عبر اعتماد الملاحظة والمعايشة كأداتين أساسيتين لهذا البحث، من خلالهما يمكن وصف الظاهرة المدروسة والتعمق في حيثياتها وتدوين تفاصيلها بكل موضوعية، وقد أكد في الوقت ذاته على أهمية المعايشة الأنثروبولوجية كأداة منهجية أساسية مرافقة لكل ملاحظة أنثروبولوجية، وتسمح هذه الأخيرة بتحقيق الدقة في البحث العلمي، وتساعد الباحث على فهم الظاهرة المدروسة بكل مستوياتها، وبجميع أبعادها ومتغيراتها، وترقب مظاهر التنوع والتغير والتطور فيها، (06 : Jean Marie T , 2002).

من هذا المنظور، فإن أنثروبولوجيا الاتصال لا تنفصل في منهجيتها عن الأنثروبولوجيا العامة في اعتمادها على الأدوات المنهجية الخاصة بهذا العلم، والتي لخصها "مارسال موس" بالملاحظة والمعايشة والمشاركة"، بيد أنه، ولكي يتمكن الباحث من التوغل في الجماعة الاجتماعية المدروسة، لا بد أن يتمتع بـ "الكفاءة الاتصالية" التي تسمح له بمشاركة الفاعلين في مختلف سلوكياتهم ووضعياتهم، وهو الشرط الذي يجعل من الاتصال أداة منهجية هامة لتفعيل البحث، من خلال تمكين الباحث من التوغل في خصوصية الجماعة البشرية والإطلاع على رأسمائها الرمزي الخاص بها، وهنا، لا تشمل الكفاءة الاتصالية إتقان تقنيات الاتصال اللفظي وغير لفظي - فحسب - بل يشتمل في الوقت ذاته التوغل في المخيال الاجتماعي للجماعة البشرية والوصول إلى السر القدسي لها , Jean Marie T

..2002 : 06

وقد أكد على هذه الفكرة رواد أنثروبولوجيا الاتصال، ومنهم " **Sherzer Joel** " والذي أشار إلى ضرورة أن تكون لأنثروبولوجيا الاتصال إمكانية تكوين أفراد قادرين على القيام بأبحاث حول مجتمعاتهم الأصلية كباحثين ومحللين، وكمشاركين وملاحظين محليين، حيث أنه من الصعب على الباحث أن يتعمق بالبحث في مجتمع يكون فيه غريبا عن السياق السوسيوثقافي له، وهنا، تبنى منهجية البحث الأنثروبولوجي في هذا المجال على دقة الوصف وعمق الملاحظة وقوة التحليل، وفعالية الاتصال والتواصل مع الجماعة المدروسة (بوجمعة ر، أبريل 2009: 42 بتصرف) ... ولا يفوتنا في هذا القول أن أنثروبولوجيا الاتصال تركز في الأساس على قائمة من المصطلحات التي تعتبر الكلمات المفتاحية للبحث في هذا المجال، وقد صاغها: " إمس دال " في كل من الوظائف الاتصالية، الكلام الاتصالي، الكفاءة الاتصالية، الثقافة والاتصال، البنية السوسيوثقافية والإيديولوجية، التنوع اللغوي والثقافي، الشفراء الثقافية والاجتماعية، الوضعيات الاتصالية المختلفة، الأدوار والوظائف والعلاقات الاجتماعية الهوية وغيرها، وغيرها من المحاور الأخرى والتي يمكن اعتبارها دعائم أساسية في التحليل والبحث، (**Muriel Saville T , 2003:24,25**). حيث أن الباحث في هذا المجال يعمل على تحليل السيرورة الاتصالية من خلال تفكيك هذه المحاور وربطها بالمعنى المشترك لأفراد الجماعة البشرية، ويمكن اعتبارها القاعدة الأساسية لفهم الواقع الاتصالي في المجتمعات الحالية، وفي ضوء الميديا الاجتماعية وما أحدثته من تغيرات جذرية في جوانب مختلفة للحياة اليومية، إذ تسمح هذه الأخيرة بمعايشة الحدث الاتصالي، وفهم المتغيرات المتحركة فيه، ومن ثم الوصول إلى الوصف والتأويل الدقيق لمختلف جوانبه.

خلاصة :

ما يمكن الإشارة إليه على ضوء ما حللناه في هذه المدخلة العلمية أن أنثروبولوجيا الاتصال فرع معرفي هام وأساسي يسمح بالولوج في جوهر الأنماط الاتصالية والتفاعلية لأفراد الجماعة البشرية من خلال معايشة الفعل الاتصالي كفعل مألوف، والمعامل معه وفق منظوره الشمولي الذي يتعدى الصيغ التقليدية لمفهوم الاتصال من خلال تركيزه على مفاهيم أشمل وأعمق تتضمن في طياتها التبادل، المشاركة، التقاسم والتحاوور بالإضافة إلى التفاعل الرمزي الذي يتعدى ما هو لفظي في السيرورة الاتصالية ليشتمل ما هو غير لفظي، من لغة الإشارة إلى سيميائية الفضاء فلغة الأشياء، وبالإضافة إلى هذا المنظور الشمولي للاتصال في ظل هذا الاتجاه المعرفي، لا بد من التأكيد على أن أنثروبولوجيا الاتصال تركز في الأساس على المعايشة والتقاسم والمشاركة للولوج إلى الخصوصية الثقافية للجماعات المدروسة، وهي القاعدة الأساسية التي تسمح بتحليل الواقع الاتصالي للمجتمعات المعاصرة إذ لا بد من توجيه الأبحاث الاتصالية نحو هذا المنحى للوصول إلى معلومات تفصيلية دقيقة ومعقدة حول الواقع المدروس.

المراجع المعتمدة:

المراجع باللغة العربية:

1. توماس هاييلاند إيريكسون، فين سيفرت نيلسون، ترجمة: لاهاي عبد الحسين، 2013، تاريخ النظرية الأنثروبولوجية، ط 1، الجزائر، منشورات الاختلاف.
2. الجوهرى محمد، 1983، الأنثروبولوجيا، أسس نظرية وتطبيقات عملية، ط 04، مصر، دار المعارف.
3. فهمي حسين، 1986، قصة الأنثروبولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
4. كريم زكي حسام الدين، دون سنة، الإشارات الجسمية، ط 02، مصر، طبعة إلكترونية.
5. محمد عبده محبوب، دون سنة، مقدمة في الأنثروبولوجيا، مصر، دار المعرفة الجامعية.
6. بوجمعة رضوان، أبريل 2009، أنثروبولوجيا الاتصال: من الكلام إلى الفعل الاتصالي المؤلف، مجلة فكر ومجتمع، (02)، 37-48.

المراجع باللغة الفرنسية

1. Claude Levi-Strauss, 1984, **anthropologie structurale**, Paris, Librairie Plon .
2. Edward T. Hall, traduit par Amélie Petita, 1971, **la dimension cachée**, Paris, édition du Seuil .
3. Jacques Lombard, 1998, **introduction à l'ethnologie**, deuxième édition, Paris, Armand Colin .
4. Jean Marie Tremblay ,2002, **manuel d'ethnographie, extrait du livre de Marcel Mauss**, Paris, édition électronique .
5. Yves Winkin, 1981, **la nouvelle communication**, Paris , edition du Seuil .
6. Yves Winkin, 1996, **anthropologie de la communication , de la théorie au terrain**, Paris, edition du Seuil.

المراجع باللغة الإنجليزية

1. Muriel Saville-Troiké, 2003, **the ethnography of communication, an antroduction**, third edition, USA, Blackwell Publishing:

